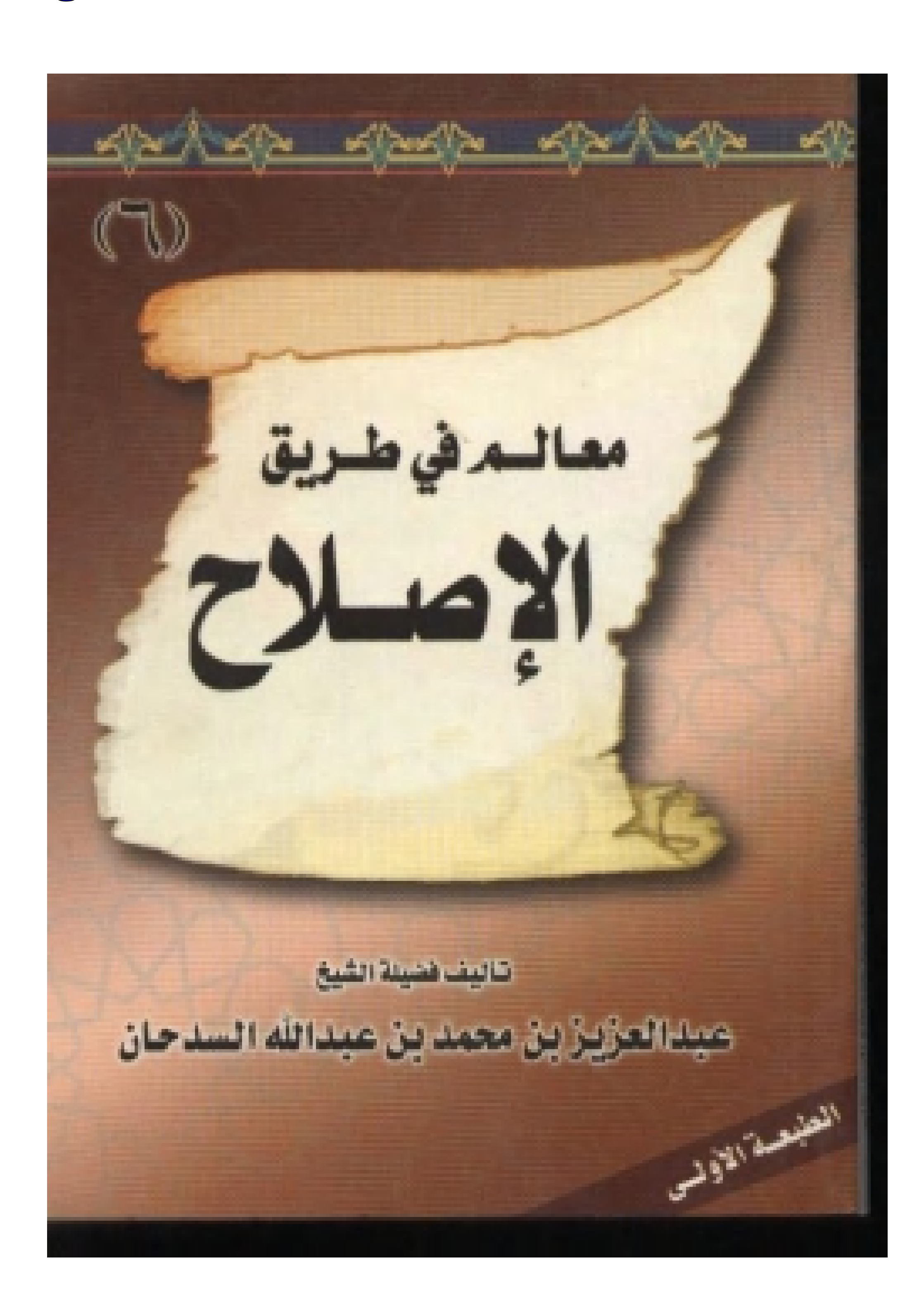


(٦)
معالم في طريق
الإصلاح
تأليف فضيلة الشيخ
عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان
الطبعة الأولى

معالم

في طريق الإصلاح

تأليف فضيلة الشيخ

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإنّ نشر العلم ودعوة الناس إلى الخير من أعظم القُرُبات وأرفع الدرجات، ولذا كان هو طريقَ الرُّسل لا الذي سلكوه مع أقوامهم، فقام رُسُل الله لا بدعوتهم حقَّ القيام، وكان خاتمهم وأفضلهم نبيّنا محمدًا ﷺ الذي تعبَّدنا الله تعالى بطاعته.

ولما كان طريق الإصلاح بهذه المنزلة الرَّفيعة والرُّتبة الشريفة؛ كان لزامًا على من يُريد الإصلاح أن يكون على بيِّنة وبصيرةٍ من أمره. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ يوسف: ١٠٨

فالدّاعية إلى الإصلاح على بصيرة تؤتي دعوتُه ثمارَها، وذلك بحصول مرضاة الله له بظفره بالأجر الجزيل؛ لكونه مقتديًا ومتّبعًا.

وفي هذا العصر ـ وبحمد الله تعالى وفضله ـ أقبل كثيرٌ من الناس عامّتهم وخاصّتهم إلى أبواب الخير علمًا وعملًا ودعمًا.

ومع هذا الخير العظيم لم يغفل أهل الشرّ فزادوا من بثّ شرِّهم؛ بُغيةَ صدّ الناس عن الخير.

ونتيجة لهذا الصراع المستديم كان على مريد الإصلاح أن يُحسن الظنّ بالله تعالى، ثم يُشمِّر عن ساعد الجِدّ ولا يفتر أو يتخاذل، شريطةَ أن تكون دعوتُه على ضوء الأدلة الشرعية بفهم سلف الأمّة عليهم رحمة الله.

وفي ثنايا هذه الرِّسالة معالمُ يستضيءُ بها مُريد الإصلاح، مستمدّة من كتاب الله تعالى وسُنّة نبيِّه ج وكلام أهل العلم.

اللهَ أسأل أن ينفع بها. اللهمَّ وفِّق الدُعاة المصلحين وارزُقهم العلم النافع والعمل الصالح، وبارك في جُهودهم، وألِّف بين قلوبهم، وأقرَّ أعيُنَهم بصلاح مجتمعاتهم وعِزِّ أمَّتهم. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

عبدالعزيز السدحان

١٤٢٠/٨/١٧هـ

[١]

الإخلاص في العمل

وهذا الأمر (الإخلاص لله تعالى) هو أساس نجاح العمل وفلاح العامل، بل هو القاعدة والمنطلق الذي بصلاحه يصلح شأن المرء وعمله، وبفساده يفسد شأن المرء وعمله. ولعِظَم شأن الإخلاص جاء التأكيد عليه في غير آية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ البينة: ٥

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ١١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الأعراف: ٢٩ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ١٤

فبالإخلاص يبارك الله ﻷ للعامل في عمله، ويزيد في توفيقه وتأييده، والعامل بإخلاصه في عمله على خير ومن خير وإلى خير.

ولذا ذكر غيرُ واحدٍ أنّ بعض الناصحين المخلصين ممّن عندهم يسيرٌ من العلم يُبارك الله ﻷ في جهودهم وينفع بدعوتهم، ويُؤثّر نصحُهم في نفوس المدعوِّين أبلغَ تأثيرَ، وهذا من ثمار الإخلاص.

فعلى الداعية إلى سبيل الخير أن يدعو الله تعالى بأن يرزقه الإخلاص في جميع الشؤون، وإن نازعته نفسُه في ذلك وجنحت به عن طريق الإخلاص فليُجاهدها وليصدُق في جهاده، وسيرى من الله تعالى ما يُقرّ عينَه ويشرح صدره. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩

قال الإمام ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: ((من عوَّد نفسَه العمل لله لم أشقَّ عليه من العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظّه لم يكن أشقّ عليه من الإخلاص والعمل لله))[١].

(١) «عدة الصابرين» (ص٨٢).

[٢]
العمل بعلم

إنّ من أعظم ما يُعيق ـ بل يوقف ـ مهمّة الإصلاح: إقدام بعض من يُريد الإصلاح على ذلك بلا علم، يدفعُه في ذلك غيرتُه وعاطفتُه، وهذا وإن كان دافعه حبّ نشر الخير ودرء الشرّ، إلّا أنّ ذلك المقصد لا يشفع له في تسويغ شرعية عمله، فقد يترتّب على تصرُّفه فسادٌ وإفساد، بسبب بُعده عن المنهج العلمي.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فعلى من أراد الإصلاح أن يكون في إصلاحه على منهج علميّ مستمدّ من الكتاب والسنّة وفهم السلف الصالح.

لذا تعبّدنا الله تعالى بسؤال أهل العلم فيما يُشكل علينا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٤٣ فبسؤال أهل العلم يزول الإشكال، وتنجلي الغمّة، ويكون العامل على بصيرة في عمله ودعوته بإذن الله تعالى.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: ((باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)، فبدأ بالعلم)).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ((قوله: باب العلم قبل القول والعمل، قال ابن المنيِّر: أراد به أنّ العلمَ شرط في صحّة القول والعمل، فلا يعتبر إلّا به، فهو متقدِّم عليهما؛ لأنه مصحِّح للنية المصحِّحة للعمل، فنبّه المصنّف ـ يعني الإمام البخاري ـ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إنّ العلم لا ينفع إلا بالعمل» تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه)) [١].

وقال الإمام العيني رحمه الله تعالى على التبويب السابق للبخاري: ((أي: هذا باب في بيان أنّ العلم قبل القول والعمل، أراد أنّ الشيء يعلم أولًا ثم يقال ويُعمَل به، فالعلم مقدَّم عليهما بالذات)) [٢].

وبكل حال؛ فعلى الداعية إلى الخير أن يتبصَّر في أمر دعوته، وذلك ـ كما تقدّم ـ بسؤال أهل العلم ومباحثتهم فيما يُشكل عليه، وكذا البحث في كلام أهل العلم وما

(١) «فتح الباري» (١/١٩٣).
(٢) «عمدة القاري» (١/٤١٨).

سطّروه في شأن ما أشكل عليه، فبذلك يصلح أمرُ دعوته؛ لكونها على منهج علميّ واضح.

وليحذر من اتّخاذ تصرُّفات مجرَّدة عن العلم الشرعيّ، إنما يدفعه فيها عاطفة جيَّاشة، أو محاكاة لفلان وفلان! فليست العاطفة ولا الكثرة أو محبة الأشخاص شافعةً للإقدام على عمل دون تبصُّر في معالجته.

فيا من أراد الإصلاح... ليكن منهجُك: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يوسف: ١٠٨

(بَصِيرَةٍ): لا بمجرّد عاطفة أو حماسة مفرطة.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: ((يعرض للسَّالك مَعاطب ومَهالك لا يُنجِّيه منها إلّا بصيرة العلم))[١].

وقال الإمام ابن باز رحمه الله تعالى عندما ذكر أخلاق الدعاة وصفاتهم ما نصّه:

((ثانيًا: أن تكون على بيِّنة في دعوتك، أي على علم، لا تكن جاهلًا بما تدعو إليه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يوسف: ١٠٨. فلا بدّ من العلم، فالعلم فريضة، فإياك أن تدعو على جهالة، وإياك أن تتكلم فيما لا تعلم، فالجاهل يهدم ولا يبني، ويُفسِد ولا يُصلح، فاتّق الله يا عبد الله، إياك أن تقول على الله بغير علم، لا تدعو إلى شيء إلا بعد العلم به والبصيرة بما قاله الله ورسوله، فلا بُدّ من بصيرة وهي العلم، فعلى طالب العلم وعلى الداعية أن يتبصَّر فيما يدعو إليه، وأن ينظر فيما يدعو إليه ودليله، فإن ظهر له الحقّ وعرفه ودعا إلى ذلك سواء كان ذلك فعلًا أو تركًا، فيدعو إلى الفعل إذا كان طاعةً لله ورسوله، ويدعو إلى ترك ما نهى الله عنه ورسوله على بيِّنة وبصيرة))[٢].

***

(١) «مدارج السالكين».
(٢) رسالة «أخلاق الدعاة» للشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى.

[٣]

الحرص على رؤية النتائج وتعليق النجاح بذلك

يحرص كثيرٌ من أهل الخير على رؤية النتائج الإيجابية، ويهتمُّون بذلك كثيرًا، ويُعلّقون على ذلك الآمال الطويلة، فإذا ما طال بهم الأمد ولم تتّضح رؤية النتائج بعدُ دبّ إلى نفوسهم شيءٌ من الضعف، وما يزال ذلك الضعف يزيد بهم على تقادُم الأيام حتى يُصاب بعضهم بالإحباط والتقاعس، بل قد يصل بعضهم إلى أن تحدُث له ردّة فعل عكسية.

وهذا من الخلل في المنهج الدعويّ، فليس الداعية مكلّفًا برؤية النتائج، وليس من ضرورة أو أسباب نجاح دعوته أن يرى نتائجها، بل عليه أن يبذل قصارى جهده في دعوة الناس إلى الخير فإن قرَّت عينُه برؤية ثمار دعوته فبها ونعمت، وإن كانت الأخرى وتأخّر قطف الثمر فهو على خير.

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتمّ المقاصد

وقبل هذا كلّه؛ ليجعل الداعية إلى الخير نصبَ عينيه تلك النصوص عن تبليغ أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الناسَ الخير والحرص على ذلك ولو تأخّر موسم الثمر:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النحل: ٣٥

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النور: ٥٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ الأعراف: ٦٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ الأعراف: ٦٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ المائدة: ٦٧

بل يتأمّل في تلك النصوص المؤكّدة أنّ وظيفة الداعية البلاغ حتى ولو أعرض المدعُوُّون، وليس من وظيفته أن يرى ثمار دعوته باستجابة المدعُوِّين، كما

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ آل عمران: ٢٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ الشورى: ٤٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ التغابن: ١٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ الأعراف: ٧٩

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ هود: ٥٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد: ٤٠

ومن خلال هذه النصوص وما في معناها يتبيَّن أنه على الداعية إلى الخير أن يُشمِّر عن ساعديه في سبيل نشر الخير، فإن تقبّل المدعوُّون دعوته فله ولهم، وإن أصرُّوا على باطلهم وعاندوا فله وعليهم، فهو مأجورٌ في الحالين.

ويُساق في هذا المبحث حديثٌ نبويٌّ فيه أمثلة حقّة لأهل القدوة العُلى عليهم الصلاة والسلام، وكيف أنّ قلة المستجيبين لم تمنعهم من دوام البلاغ ولم تُقلِّل من منزلتهم في تحقيق العبودية ونصرة الدِّين.

أخرج الإمام مسلم عن ابن عباس ب قال: قال رسول الله ﷺ: ((**عُرضت عليَّ الأمم فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط ـ وهم الجماعة دون العشرة ـ، والنبيَّ ومعه الرجُل والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد...**)) الحديث[١].

والشاهد منه: ما ذكر هنا من كون بعض الأنبياء لم يتَّبعهم إلا رجُل أو رجُلان، بل وبعضهم لم يتّبعه أحد، فإذا كان هذا النبيّ الكريم الذي أُيِّد بالوحي لم يستجب أحدٌ لدعوته ومع ذلك لم يَفتُر عزمُه، بل استمرّ في تبليغ رسالة الله ؛ مرضاةً لله وبراءةً لذِمَّته ونصحًا لأمته، فأين أولئك الذين يُخَذِّلون أنفسهم ويُخذِّلون غيرَهم عند قلة المستجيبين؟!

فعلى الداعية أن يستمرّ في تبليغ الخير والنصح طلبًا لمرضاة الله ، ثم براءةً لذِمّته ونصحًا لإخوانه المسلمين، وليحذر من تلبيس إبليس عند قلة المستجيبين، فربما

(١) متفق عليه: البخاري في كتاب الطب، «فتح الباري» (١٩١/١٠) باب (١٧) رقم (٥٧٠٥)، ومسلم (٨٧/٢) باب (٩٤) رقم (٥٢٦)، واللفظ له.

يُداخله العجب إذا كثر المستمعون، وتضعف نفسه عن تبليغ الخير عند قلة الحاضرين.

ذكر الذهبي رحمه الله تعالى عن عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى أنه قال: ((كنت أجلس يوم الجمعة فإذا كثُر الناس فرحت وإذا قلّوا حزنت، فسألتُ بشر ابن منصور فقال: هذا مجلس سوء فلا تعُد إليه! فما عُدت إليه))[١].

فإذا كان يصيبك العجب ويصيبك ما يصيبك من الغبطة إذا رأيتَ الجمع ثم إذا ذهب الجمع وتفرّقوا ولم يبق إلا القليل لم تُخلِص في عملك وفي أداء ما عندك، فهذا مجلس سوء يضرُّك ولا ينفعُك!

إذن؛ لو لم يجلس إليك إلا واحدٌ فعلِّمهُ مما علّمك الله.

ولقد رأيتُ بعض المشايخ يجلس وحيدًا ليس عنده أحدٌ، فإذا جاءه أحدٌ وقرأ عليه شرحَ له، فإن لم يأتِ أحدٌ وانتهى وقت الدرس قام ولم يكترث، ويعود غدًا وبعد غد إلى ما شاء الله.

قال الإمام مالكٌ :: ((كنتُ آتي نافعًا وأنا غلام حديثُ السنّ مع غلام لي، فينزل درجة فيقف معي ويُحدِّثني، وكان يجلس بعد الصبح في المسجد فلا يكاد يأتيه أحدٌ))[٢].

وذكر الذهبي في ترجمة عطاء بن أبي رباح أنّ أحد معاصريه قال: ((رأيتُ عطاءً ـ وهو أرضى أهل الأرض عند الناس ـ وليس يجلس معه إلّا تسعة أو ثمانية))[٣].

فالعبرة ليست بالكثرة، إنما العبرة بالإخلاص وبالنفع المقدَّم لهذا الجمع، فلا تحقرنّ من المعروف شيئًا إطلاقًا، وابذل ما عندك من العلم، فقد يحضر عندك خمسة أو أربعة فينتفع منهم واحد، ويحضر عند غيرك أربعون أو خمسون فينتفع منهم خمسة أو ستة، ويكون هذا الواحد الذي عندك نفعه أعظم من ذلك النفع عند الخمسة أو الستة، فينفع الله بذلك الواحد أضعاف ما ينفع بأترابه وأقرانه[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/١٩٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/١٠٧).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/٨٤).
(٤) انظر: «معالم في طريق طلب العلم» (ص٢٢٧-٢٢٨).

[٤]
ذكر المثالب وفتح أبواب اليأس والقنوط

مما يؤخذ على بعض من يريد الإصلاح: الإكثار من ذِكر المثالب في مجتمعه، والدندنة حول تلك الأمور في غالب أحاديثه، ولو أنه ذكر ذلك من باب إيجاد طرق العلاج لكان ذلك محمدةً في حقّه، لكن المصيبة أن يذكر ذلك من باب صعوبة سلوك طريق الإصلاح، فيترتّب من جراء ذلك تقاعسه عن العمل، بل إدخال اليأس إلى جلسائه!

ولو أنّ هذا وأمثالَه غلّبوا جانب التفاؤل في عملهم وأنهم على خير في سعيهم إلى الإصلاح سواء صلح العطب أو بعضه، بل حتى لو لم يصلح شيءٌ مما أرادوا، فالله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

وهنا ينبه ويؤكد على الحذر من مجرَّد ذِكر المنكرات والتشعب في سرد أحوالها؛ لئلّا يغلق ذلك المتشائم المتقاعس أبواب الإصلاح في نفس من أراده وتحمّس له، فلا ينبغي لمريد الإصلاح أن يُغلّب جانب السلبيات ويُغفل ذِكر شيء من الإيجابيات التي تُذكي الهمّة في نفوس المصلحين، وكان الأولى به أن يكون منصفًا في قوله، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ الأنعام: ١٥٢.

وبيان ذلك: أنه لو أراد الكلام عن منكر شاع أثرُه في البلد وتلوّث به كثيرٌ من الناس ذكر خطر المنكر وشدّة تأثيره على المجتمع، ومع هذا كلّه يذكر أنّ كثيرًا من الناس يحتاجون إلى تذكير وبيان، وأنّ أهل المجتمع أكثرهم من أهل الجمعة والجماعة وأهل فطرة وسلامة، وينبغي أن نذكّرهم بأنهم أهل صلاة ومخافة من الله، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ونحن على خير في دعوة من قصَّر منهم، وسواءٌ استجاب أولئك المقصِّرون أو لم يستجيبوا... فهذا الكلام وأمثالَه يزيد الهمّة ويقوّي العزيمة.

قال الإمام ابن القيّم : ((علوّ همّة المرء عنوان فلاحه، وسُفول همّته عنوان حرمانه))[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٨٠).

ولا بُدّ في هذا المقام أيضًا من التنبيه على أولئك الذين يتحدّثون عن عزّ الإسلام وشموخه وأنّ النصر له، لكن مع هذا كلّه لم يُحرِّكوا ساكنًا في سبيل الإصلاح، بل جعلوا هذا الكلام من باب التماس الأعذار لأنفسهم، وأنهم متفائلون بنصر الإسلام!

وبكل حال؛ فهؤلاء ومن سبق ذِكرُهم طرفا نقيض.

ويحسُن في هذا المبحث ذِكر كلام نفيس للشيخ عبدالرحمن بن سعدي : قال: ((واليوم وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد والأعداء يتربَّصون بهم الدوائر، هذه الحالة أوجدت من بينهم أناسًا ضعيفي الإيمان ضعيفي الرأي والقوّة، يتشاءمون أنّ الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأنّ المسلمين إلى ذهابٍ واضمحلال، ولقد غلطوا في هذا أعظم غلط، فإنّ هذا الضعف عارضٌ له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحّة الإسلام كما كانت، كما تعود إليه قوّته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعُف المسلمون إلّا لأنهم خالفوا كتابَ ربِّهم وسُنّة نبيِّهم ﷺ ، وتنكّبوا السُّنن الكونية التي جعلها الله مادةَ حياة الأمم ورقيّها، فإذا رجعوا إلى ما مهَّده لهم دينُهم فإنهم لا بدّ أن يصلوا إلى الغاية كلِّها أو بعضها.

وهذا المذهب المهين ـ وهو التشاؤم والكسل ـ لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه، بل يحذِّر عنه أشدَّ تحذير، ويبيِّن للناس أنّ النجاح مأمول وأنّ مع العُسر يسرًا، وأنه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الطلاق: ٧ ، ويبيِّن أنه لا أضرَّ عليهم من اليأس والقنوط.

فليتَّق اللهَ هؤلاء المتشائمون ربَّهم، وليعلموا أنّ المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقيّ.

ويقابل هؤلاء طائفةٌ يُؤمِّلون آمالًا عظيمةً، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدّثون بمجد الإسلام ورفعته، وأنّ له العاقبة الحميدة، وأنّ الرجوع إلى تعاليمه وهدايته هو السبب الوحيد لعلوّ أهله ورفعتهم، ولكن لا يُقدِّمون لدينهم أدنى منفعة بدنية ولا مالية! ولا يُقدِّمون مساعدةً جِدِّيةً لتحقيق ما يقولون، فإنّ الأقوال لا تقوم إلّا إذا قارنتها الأفعال.

ويا طوبى لطائفة هم غُرَّة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدِّين، قَرَنوا الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وبأقوالهم وبإنهاض إخوانهم، وتبرَّؤوا من مذهب المتشائمين ومن أهل الأقوال دون الأفعال، فهؤلاء هم الذين يُناط بهم الأمل، وتُدرَك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة))[١].

***

(١) «واجب المسلمين» (٢٣-٢٤).

[٥]
(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ)

على مريد الإصلاح أن يستشعر أنه على ثغر أينما كان، وعليه أن يحمل همَّ الإصلاح في كلِّ شؤونه، وليعلم ـ بل ليتيقّن ـ أنه إذا صدق في ذلك سيرى من ثمار التوفيق الإلهي خيرًا كثيرًا بإذن الله تعالى.

وإنّ مما يُلاحَظ على بعض المصلحين: قوّة العزيمة، والحرص على نشر الخير في مكان مُعيَّن، ككُلِّية أو مدرسة أو ما شاكل ذلك، لكن تلك الحماسة وتلك العزيمة تتلاشى أو يتلاشى أكثرُها إذا غادر أسوار كلِّيته أو مدرستِه!

وهذا المصلح مشكورٌ مأجورٌ على جُهده الذي بذله في نشر الخير والمعروف، لكن المأمول منه أن يكون كالغيث أينما حلّ نفع، وهو أمرٌ يسير على من يسَّره الله تعالى عليه، وليس بالضرورة أن تكون همّتُه في نشر الخير كما لو كان في مكان سكنه أو عمله أو تعليمه، وهذا أمرٌ طبيعيّ، لكن الذي يؤخَذ على بعض المصلحين انعدام الهمّة أو ذهاب أغلبها في غير تلك المواطن.

ولهذا تأمَّل في نصّ الآية الكريمة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ مريم: ٣١ ، مباركًا في أيّ مكان نزل فيه، مباركًا في كلِّ يوم عاش فيه، مباركًا مع كلّ أحد، وإن شئت فقل: مباركًا في كلّ مكان، مبارَكًا في كل زمان، مباركًا مع كلّ إنسان.

فعليك يا مبلِّغ الخير أن تجتهد في نشر الخير في كلّ مكان، وفي كلّ زمان، ومع كلّ إنسان.

ومن أمثلة ذلك:

أن يكون لك حظّ من زيارة المستشفيات زيارة قُربة ودعوة، وكذا زيارة السُّجون، ومن ذلك أيضًا: حثّ أهل البيت على التبرُّع بمبلغ على رأس كلّ شهر لصالح مشاريع الخير، وكذا جمع الملابس الفاضلة لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين... إلى غير ذلك من عمل كلّ خير، وسترى آثارَ البركة بفضل الله تعالى، جعلك الله مبارَكًا أينما كنت.

***

[٦]
التراجع عن الخطأ وعدم التماس الأعذار

من تلبيس إبليس على بعض الناس: أنه عندما يتبيَّن له خطؤه في مسألة ما ويتّضح له أنّ الصواب على خلاف كلامه أو فعله فإنه يجد صعوبةً بالغةً في التراجع عن خطئه ذاك، بل يظنّ أنّ رجوعَه منقصةٌ في حقّه.

بل يزداد تلبيس إبليس عليه، فيبدأ في التماس الأعذار التي تُسوِّغ موقفه، بل قد يلتمس الحُجج الواهية في سبيل تصويب خطئه، وهذا ـ والعياذ بالله ـ من الإجرام في العمل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ الأنفال: ٨ .

قال ابنُ جماعة رحمه الله تعالى: ((إنّ إرادة إبطال الحقّ وتحقيق الباطل صفة إجرام، فليحذر منه!))[١].

فعلى مريد الإصلاح أن يُوَطِّن نفسَه ـ بل يأطُرَها ـ على الرُّجوع عن الخطأ والمبادرة إلى طريق الصواب دون تردُّد، وليعلم أنّ رجوعَه عن خطئه واعترافَه به محمدةٌ في حقّه.

سأل رجُلٌ أبا هريرة ا فأفتاه، فلما ولّى الرجُل تنبَّه أبو هريرة ا إلى أنه أخطأ، فذهب ليتدارك الرجل فلم يستطع، فنادى في السوق: إنّ أبا هريرة أفتى في مسألة كذا وكذا، وإنه أخطأ!

ومثل ذلك أيضًا: ما حصل بين الإمامين مالك وأبي يوسف ـ عليهما رحمة الله تعالى ـ عندما تناظرا في مقدار الصاع، فلما ظهرت حُجّة مالك على حُجّة أبي يوسف قال أبو يوسف: ((قد رجعتُ عن قولي يا أبا عبدالله، ولو رأى صاحبي ـ يعني أبا حنيفة رحمه الله تعالى ـ ما رأيتُ لرجع كما رجعتُ))[٢].

رحم الله سلفَنا الصالح المصلحين، الذين كانوا من أسرع الناس في الرُّجوع إلى الحقّ عند تبيُّنه.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٤٠).
(٢) انظر الخبر كاملًا في: «مجموع فتاوى» شيخ الإسلام (٢١/٥٤).

ومما يدخُل في هذا الباب: تخطئة من خالف طريق الصواب كائنًا من كان، وليس من لازم ذلك بُغضُه إلّا بضوابط شرعية، أو الغضّ من فضله، بل ذِكرُ خطئه وبيانُه من محبّتنا لنشر الخير، وكذلك من محبّتنا لذلك المخطئ؛ لأنه قصد الإصلاح فأخطأ طريقَه، وكلّ مريد للإصلاح مُحبٌّ للخير محبوبٌ لمحبّته للخير.

فيا من أراد الإصلاح... انظر ـ أيَّدك الله ـ كيف كان منهج سلفنا في مبادرتهم إلى طريق الحقّ وعدم مجاراة النفس والهوى.

رزقنا الله البصيرةَ في الأمور كلِّها، وكفانا شرَّ الهوى والنفس والشيطان.

***

[٧]
الإفراط في الحب والبغض

ومن الأمور السلبية التي يقع فيها بعض الصالحين: الإفراط في حبٍّ بعض الأشخاص وقبول كلامهم بالتسليم المطلَق إلا ما ندر، والتماس الأعذار لتسويغ أخطائهم مهما بلغت، بل التغاضي عن سيِّئاتهم وجعل محبّة هذا الشخص هي الحقّ بعينه.

وفي المقابل: الإفراط في بُغض بعض الأشخاص وتتبُّع عثراتهم وحملها على أسوأ المحامل مع تناسي حسناتهم.

وهذا الولاء والبراء عقيم ومتهاو، إذ إنّ ميزانه الهوى لا الحقّ، ومن كان هذا شأنه فلن يرى توفيقًا ولا سدادًا إلّا إنً نزع عن تلك النزعة الشيطانية التي زَيَّنت له سوءَ عمله. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾فاطر: ٨ .

ورحم الله شيخَ الإسلام ابنَ تيمية عندما بيَّن هذا المرض في كلام له هذا معناه: ومن الناس من إذا أحبَّ شخصًا تغاضى عن جميع سيِّئاته، ومنهم من إذا أبغض شخصًا تغاضى عن جميع حسناته، وهذا من أعمال البدع كالخوارج والجهمية.

وقال رحمه الله تعالى أيضًا: ((فمن جعل شخصًا من الأشخاص ـ غير رسول الله ﷺ ـ من أحبَّه ووافقه كان من أهل السنّة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفُرقة ـ كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدِّين وغير ذلك ـ كان من أهل البدع والضلال والتفرُّق))[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا: ((وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كلّ ما يريده وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه، بل مَن فعلَ هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليًّا ومن خالفهم عدوًّا بغيًا...))[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٤٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٦).

وقال أيضًا: ((... والواجب على جميعهم أن يكونوا يدًا واحدةً مع المحقّ على المبطل، فيكون المعظّم عندهم من عظّمه الله ورسوله، والمقدَّم عندهم من قدّمه الله ورسوله، والمحبوب عندهم من أحبّه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله بحسب ما يرضى الله ورسوله لا بحسب الأهواء))[1].

***

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٨).

[٨]

ربط العواطف بضابط العلم الشرعي

يقال أولًا: جاء في تعريف العاطفة عند علماء النفس أنها ((استعداد نفسيّ ينزع بصاحبه إلى الشعور بانفعالات معيَّنة، والقيام بسلوك خاص حيال فكرة أو شيء))[١].

وبعد هذا يقال:

إنّ ما يمرّ بالإنسان من العواطف يختلف باختلاف الأحوال، فتارةً تجرُّه عاطفته إلى البكاء، وتارةً إلى الميل مع تعاطف معه، بمعنى أن يترك ما كان عليه ولو كان حقًّا؛ لغلبة عاطفته عليه، وتارةً يتغيّظ ويتوقّد على شخص لم يره ولم يسمعه لكن لأمر بلغه عنه هيّج عواطفه فحكّم تلك العاطفة جزافًا دون تروٍّ أو تثبُّت، فيرمي مسلمًا ببهتان وهو بريء منه كبراءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب .

وجماع ذلك كلّه: أنّ من العواطف ما هو محمود، ومنها ما هو مذموم، فما كان من العواطف له مسوِّغ في الشرع فهو محمود، ومثال ذلك: الغضب لله تعالى عندما تُنتهَك محارمه، وكذا إذا غلبت الإنسانَ عيناه عند موت أحد ولم يقرن ذلك بنياحة أو شَقّ جيب.

وأما تلك العواطف الهوجاء التي لا يميِّز صاحبُها حقًّا من باطل، بل ينتصر لما يوافق هواه ومشربَه، فهذه طامّة عظيمة، إذ إنه يُفسد في تلك الحال أكثر مما يُصلح ـ إن أصلح ـ.

ولذا ترى بعض الناس يستشيط غيظًا وتنتفخ أوداجُه! وسبب ذلك أنه حكّم عاطفته وجعلها الفيصل في قضاياه!

نعم؛ قد تغلب الإنسانَ عاطفتُه ـ كما تقدّم بيانه ـ لكن عليه أن يسارع بالرجوع متى ما تبيَّن له الحقّ، فإنّ الرجوع إلى الحقّ أولى من التمادي في الباطل.

وأسوق مثالًا وقع في عهد الصحابة ﭫ، وبالتحديد بُعَيد وفاة الرسول ﷺ ، وذلك عندما قام عمر ا يخطُب في الناس ويتوعّد من قال: إنّ رسول الله ﷺ قد مات، وذلك لهَول الفاجعة وشِدّة المصيبة التي ألَمّت به وبالمسلمين جميعًا.

---

(١) «المعجم الوسيط» (٢/٦٠٨).

فخرج أبو بكر ﷺ ـ وعمر ﷺ يُكلِّم الناس ـ فقال: اجلس يا عمر! فأبى أن يجلس، فأقبل الناسُ إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبُد محمّدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبُد اللهَ فإنّ الله حيٌّ لا يموت. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ آل عمران: .

قال ابنُ عباس ﷺ : والله لَكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ الله أنزل هذه الآيةَ حتى تلاها أبو بكر فتلقّاها منه الناس، فما أسمع بشرًا من الناس إلّا يتلوها.

فقال عمر ﷺ : ((والله ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ حتى ما تُقِلُّني رجلايَ، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمتُ أنّ النبيَّ ﷺ قد مَات))[(١)].

قال ابنُ حجر: ((وفي الحديث قوّة جأش أبي بكر وكثرة علمه))[(٢)].

فانظر ـ رعاك الله وسدّد خطاك ـ إلى هذا الموقف العصيب الذي وصفه عروة ابن الزبير ﷺ بقوله: ((أصبح المسلمون يوم موت نبيِّهم كالغنم في الليلة المطيرة ليس لها راعٍ)) .

ثم انظر إلى عمر ﷺ ـ وهو مَن في قوّة شخصيته وإيمانه؟ ـ كيف لم يتمالك نفسَه لهول الموقف وخطورته؟

ثم انظر إلى رباطة جأش الصدِّيق ﷺ وقوّة عزيمته، وكيف تغلّب على تلك الأمور كلّها، وبصّر المسلمين بالقول الفصل الموثّق بالبرهان الواضح.

وأخيرًا: انظر كيف سارع عمر ﷺ بالرجوع، وتخلّى عن تلك العاطفة عندما بلغه النصّ الشرعي الفاصل.

فأين هذا من أناس تحكّمت فيهم عواطفُهم فأصبحوا منقادين لها، لا يقبلون إلّا ما وافق وأيَّد عواطفهم؟! فللّه كم من عمل صالح أفسدوه، وكم من فاسد زادوه فسادًا!

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢/٨) كتاب المغازي، باب (٨٣) رقم (٤٤٥٤).
(٢) «فتح الباري» (١٤٦/٨).

أضف إلى ما سبق: ما يترتّب على شخصيته من اضطراب في معالجة الأمور، وفقدان الحكمة والرَّوِيَّة ونقد الآخرين له.

اللهَ نسأل أن يُوفِّق الدعاة إلى كلّ خير، وأن يُكلِّل جهود الناصحين بالتوفيق والسداد.

***

[٩]
إبراز منزلة العلماء وربط الناس بفتاواهم

مما يُلاحَظ على كثير من الدعوات الإصلاحية: افتقارها من أهل العلم الراسخين، والاعتماد في مسيرة إصلاحها على آراء ونظريات قادتها الذين ليس لكثير منهم حظّ من العلم الشرعيّ.

وهنا تكون المصيبة؛ إذ إنّ تحكيم الاستحسان والعواطف المجرَّدة من العلم الشرعيّ تعود على المصلحين بخاصة والمجتمع بعامّة بمآس متنوِّعة.

فكم ذاقت بعض المجتمعات الإسلامية من نكبات وويلات بسبب تصرُّف مجرّد عن دلالة النصّ الشرعيّ! فكانت عاقبة الأمر خسرًا!

ولذا فعلى من أراد الإصلاح أن تكون دعوته على منهجٍ علمي سليم، وذلك بالرجوع إلى فتاوى العلماء الرَّاسخين المشهود لهم بصحّة المعتقَد وسلامة المنهج.

هذا فيما يتعلق بذوات المصلحين.

أما عامّة الناس فعلى المصلحين أن يُبرزوا للناس دور العلماء وما لهم من المكانة والمهابة، وأنّ على المسلم أن يرجع إليَهم فيما أشكل عليه في أمر دينه، وأنّ للعلماء منزلةً رفيعةً فمن أراد انتقاصَها أو المساسَ بها فقد باء بالإثم وعرَّض نفسَه للمحذور.

وبكل حال؛ الحذرَ الحذرَ من تقليل شأن العلماء وعزل فتاواهم وآرائهم عن مسيرة الإصلاح.

وإنّ مما يحزّ في النفس ألمًا أن يُرى في كثير من المصلحين بعدٌ عن مجالسة أهل العلم أو مدارستهم، بل حتى مشورتهم.

نسأل اللهَ تعالى أن يحفظ علماء السُّنّة، وأن يُقوِّي شوكتَهم في دحر أهل الفساد والإفساد، إنه تعالى سميعٌ مجيبٌ.

كما نسأله تعالى أن يُوفِّق دُعاة الخير إلى العلم النافع والعمل الصالح.

***

[١٠]
الحرص على التخصصات العلمية

إنّ مما يُعين على تحصين الثغور واتِّساع رقعة نشر الخير: أن يكون لأهل الخير نصيبٌ من المشاركة في التخصُّصات العلمية التي تعود بالنفع على المجتمع والأمّة.

وذلك كالطبّ، والصيدلة، والهندسة، والمحاسبة، وما شاكل ذلك.

فوجود أهل الخير في مثل هذه المناصب والتخصُّصات فيه مصالح كثيرةٌ للإسلام والمسلمين. فمن ذلك:

أولًا: توظيف ما يُستطاع من هذه التخصُّصات في خدمة الإسلام.

ثانيًا: تمكّن بعض أهل الخير من هذه التخصُّصات فيه مزاحمة ـ بل مدافعة ـ لمن أرادها من أجل الظهور والكسب المادِّي البحت، أو ممّن كان من أهل الشرّ والفساد وسوء الاعتقاد.

ثالثًا: إظهار أنّ الإسلام يحثّ على كل ما فيه مصلحة للناس، وهذه التخصُّصات لا غنى للمجتمعات عنها، والله تعالى أعلم.

رابعًا: فيه إعادة لشيءٍ من مجد المسلمين التليد، حيث كانت الأندلس محطًّا لركائب الرَّاغبين في تحصيل العلوم، وكان علماء المسلمين منارات يُهتدى بها، بينما كانت بلاد النصارى تلبس لباس الفوضى الخُلُقية والاجتماعية وتعيش في ظلام دامس في المعتقد والسلوك والأخلاق.

خامسًا: وجود صوت الخير في كلّ مكان، وهذا بنفسه يسدّ ثغرةً كبيرةً، إلى غير ذلك من المصالح والإيجابيات.

سادسًا: سَدُّ ما يُعَدُّ من فروض الكفايات من هذه العلوم التي لا غنى للناس عنها في حياتهم ومعاشهم، ولئلّا يحتاج المسلمون فيها ـ مضطرِّين ـ إلى غيرهم من أه الكفر والضلال.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أنّ أعداء الإسلام حرصوا على المجالات العلمية والتقدُّم فيها، وبخاصة الطبّ، وليس هذا وليدَ العصر، بل في القرون السابقة.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: ((لا أعلمُ علمًا بعد الحلال والحرام أنبل من الطبّ، إلّا أنّ أهل الكتاب غلبونا عليه)) .

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يتلهّف على ما ضيَّع المسلمون من الطبّ ويقول: ((ضيَّعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى))[١] .

ومن نظر في جهود المنصِّرين في بلاد المسلمين ـ الفقيرة بخاصة ـ وجد أنّ مهنة الطبّ من أعظم أساليب دعوتهم نجاحًا في نفوس بعض ضعاف المسلمين.

فقل لي بربِّك.. كيف يكون الحال إذا قلبت هذه الصورة فأصبح الطبيب المسلم يعالج مرضاه من المسلمين وغير المسلمين بما سخّره الله تعالى من الأساليب؟ إضافةً إلى ربط الشفاء بالله تعالى وأنّ مشيئته هي النافعة لا مشيئة العباد، وأنّ الطبّ ـ مهما تقدّم وبلغ في الرُّقيّ ـ يقف عاجزًا خاضعًا أمام ما سبق به تقدير الله تعالى.

ثم أخذ الطبيب يُذكِّر مريضَه بالآداب النبوية عند المرض وما يتبع ذلك، فإن كان المريض غيرَ مسلم رغّبه في الإسلام وبيَّن له أثرَه على القلب والجوارح.

بهذا وذاك تؤتي الثمار أكُلَها بفضل الله تعالى وتوفيقه.

نسأل الله أن يُوفِّق القائمين على مثل تلك الثغور، وأن يزيدَهم إيمانًا وثباتًا وفلاحًا، إنه سميعٌ مجيب.

***

(١) انظر: كتاب «آداب الشافعي ومناقبه» للرازي (ص٣٢١) حاشية (٤).

[١١][١]

طرح القضايا الإسلامية في المجتمعات على المنابر وفي المحاريب والصحف والمجلات

إنّ من المشاركة في آلام المسلمين وآمالهم: طرح قضاياهم وتتبُّع أخبارهم بقصد التفاعل معهم والتكاتف بكلّ وسيلة مشروعة ممكنة، كلّ ذلك بعلم، وهذه الوحدة الشعورية ألَمًا وأملًا يؤكِّدُها قول النبيِّ ﷺ : ((**إنّ بالمدينة أقوامًا ما سِرتُم مسيرًا ولا أنفقتُم نفقةً ولا قطعتُم واديًا إلا كانوا معكم فيه، وهم بالمدينة، حبسَهم العُذر**))[٢].

فطرح قضية مُصاب أمة مسلمة في مجتمعات المسلمين يُقوِّي أواصر التكاتُف والنصرة، وهذا مُشاهَد ومسموع في مجتمعات المسلمين، فكم تعاطف المسلمون مع قضايا إخوانهم وتقاطر الدمع الحسِّي والمعنويّ؟ والفضل أولًا لله ، ثم لجُهود المخلصين الذين يحملون هَمَّ إخوانهم المسلمين.

وبكل حال؛ فعلى المصلحين أن يجعلوا لقضية أولئك المستضعفين نصيبًا من مجالسهم ودروسهم.

بل الأولى أن تكون تلك القضية من القضايا الأساسية؛ لتصبح هاجسًا دائمًا بيننا، وهذا الهاجس وذلك الطرح يفعل في النفس فعلًا عظيمًا، مما يجعل المسلم يتفاعل مع إخوانه، فإذا تذكر حالَهم جعل لهم نصيبًا من دُعائه وماله ووقته.

ومما يؤسَف له أنّ كثيرًا من المسلمين لا يُلقون للمستضعفين بالًا، بل لم يُكلِّفوا أنفسهم بمتابعة أخبارهم، بل لم يُكلِّفوها حتى السؤال عنهم، إلا ما يمرّ على أحدهم عَرَضًا على سمعه وبصره.

وهذا مما يزيد في وظيفة المصلحين من البلاغ والحثّ على النصرة.

***

(١) ينظر: المعلم الرابع عشر.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة. أخرجه البخاري (٦/٥٨) من حديث أنس: كتاب الجهاد، باب (٣٥) رقم (٢٨٣٩)، وأخرجه مسلم (٧/٥٨) من حديث جابر: كتاب الإمارة، باب (٤٨) رقم (٤٩٠٩).

[١٢]

التفريق بين العالِم وغيره كالعابد والخطيب والكاتب

يلتبس على كثير من مُريدي الإصلاح ـ وبخاصة من الناشئة ـ الفرق بين العالِم الذي أمرَنا الله تعالى بسُؤاله، وبين غير العالِم ممّن فُتح له باب في الخطابة أو العبادة أو الكتابة.

فموهبة الخطابة والكتابة وكثرة العبادة كلّ ذلك من أبواب الخير والفضل إذا كان صاحبها على علم، لكن مع ذلك كلّه تبقى الفُتيا ـ وبخاصة في الأمور الكبيرة ـ موقوفةً على العالِم المعروف بصحّة المعتقد وسلامة المنهج والرُّسوخ في العلم.

وهذا اللَّبس (عدم التفريق بين العلماء وغيرهم) جَرَّ على كثير من مجتمعات المسلمين نكبات وويلات في وقت هم أحوج ما يكونون إلى التكاتُف والترابط.

لكنّ تصدُّر بعض الناس ـ ممّن لا يُعرَفون بالعلم فضلًا عن التضلّع فيه ـ لمجالس الفتيا وإصدار الفتاوى المجرَّدة من الدليل الشرعيّ ـ بسبب عاطفة جياشة أو محاكاة لآخرين ـ أضاع كثيرًا من الجهود وكان سببًا في إغلاق أبواب من الخير وفتحِ أبواب من الشرّ. نسأل الله تعالى أن يحفظ المصلحين من كيد الهوى والشيطان.

وعلى هذا؛ فعلى مريد الإصلاح أن يتريَّث إذا التبست الأمور، وليحذر من الأخذ بكلّ ما يسمع ولو كان معجَبًا به.

فكلّ هذا لا يشفع لأخذ كلامه بالقناعة التامّة، فمنزلة العالِم لا يبلُغُها المتكلّم والخطيب، ولا يكاد، إذا كان عازفًا عن طلب العلم الشرعيّ.

كذلك على مريد الإصلاح ممّن أوتي حظًّا في الخطابة أو الكتابة ونحوهما وحَسُن ظنُّ الناس فيه ـ لخُلُقِه وسَمتِه ـ أن يعرف قدرَ نفسه، فلا يُفتي بغير علم، ولا يستنكف أو يستحيي من قول: لا أدري؛ لئلّا يورد نفسه وغيرَه موارد الزلل، وبإمكانه أن يُرشِد إلى أهل العلم فيما لا علم له به، فيكونَ دالًّا على خير عظيم، فضلًا عن استبرائه لدينه.

****

[١٣]
الحذر من العُجب
لا سيما عند ثناء الناس وتصدر المجالس

من عاجل بشرى المؤمن: محبّة الناس له، وهذا مما يكون سببًا في قَبول دعوته وسُرعة انقياد المدعوِّين له.

فعلى مَن مَنَّ اللهُ تعالى عليه بذلك أن يشكُر الله تعالى على تلك النعمة، وأن يحرص على دوامها له، وأن يحذَرَ مما يشوبُ نقاءَها أو يُكدِّر صفاءَها.

وإنّ من أعظم ما يَضُرُّ بالداعية: دخول العُجب إلى نفسه وحبّ الظهور في مَجامع الناس، وهذا الشعور نَذير فِتَن وشرور، فحُبُّ الظهور يقصم الظهور.

ولذا كان لزامًا على مريد الإصلاح أن يستشعر ـ بل يعتقد ـ أنّ كلّ ما أصابه من علم وفضل وقَبول فهو من فضل الله تعالى وعونه، فليُكثِر من شُكر الله تعالى وحمده، وسؤال المزيد من فضله.

ومتى ما نازعته نفسُه إلى العُجب فليأطرها إلى سبيل الخير ويجاهد في سبيل ذلك، وسيرى من الله تعالى ما يسُرُّه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله تعالى: ((من علامة الإخبات: عدم الفرَح بمدح الناس أو الحزن بذمِّهم)) [١].

(١) «مدارج السالكين» (٦/٢).

[١٤]
تغليب القضايا العصرية
والتهاون أو التقليل من أمر العقائد والعبادات والمعاملات

مما يُلاحَظ على بعض دُعاة الإصلاح: عدمُ الاهتمام بالأمور العقَدية، وكذلك أمور العبادات والمعاملات، وتغليب القضايا العصرية، بمعنى أنّ جُلّ كلامه واهتماماته منصبّة على قضايا الواقع المعاصر.

وهذا بحدّ ذاته خللٌ واضح، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك التقليل من شأن تلك الأمور، وزعْم أنّ الأمّة بحاجة إلى أن تُفيق من سُباتها أولًا ثم يأتي دور إصلاح الأمور العقَدية وكذا أمور العبادات وغيرها؟!

هذا ممّن ظفر الشيطان منه بنصيب كبير!

فكيف يُريد الإصلاح من هوَّن القوادح العقدية وأقرَّ البدع في عبادات الناس، بدعوى إصلاح الخلل الأكبر ـ في نظره ـ ولم يعلم أنّ الخلل العقديّ ورواج البدع في مجتمعات المسلمين في الخلل الأكبر والخطب الأعظم الذي تمكّن بسببه الوهن والخوَر في نفوس كثير من المسلمين اليوم، فأصبحت سوق الشرك والبدع رائجةً وراياتُها خفّاقةً في المساجد وغيرها!

فكم يندى الجبين ويتفطّر القلب إذا رأى المسلم تلك الأمم التي تقصد الأضرحة وتتبرَّك بأصحابها! وكم يألم القلب إذا رأى غُربة السنّة في كثير من عبادات المسلمين اليوم! ناهيك عمّا يقع في معاملاتهم من الصوَر المحرَّمة والمشبوهة والمشتبهة.

والمرتكبون لهذه الأمور من عامّة الناس أكثرهم جهَلة، ومما أعانهم على ذلك هو عدم سماع النهي عنها والتحذير منها من كثير من مُريدي الإصلاح.

فنسأل الله تعالى أن يوفِّق المقصِّرين من المصلحين إلى العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الدِّين الخالص مع الصبر على الأذى فيه.

***

[١٥]

كل منا على ثغر من ثغور الإسلام

المسلم الصادق يستشعر أنّ عليه مسؤوليةَ تبليغ الخير في أيّ مكان كان، وعلى كلّ مريد للإصلاح أن يستثمر جميع الإمكانات المتاحة له والمواهب التي أنعم الله بها عليه، فثغور الإسلام كثيرة، وعلى كلّ مريدٍ للإصلاح أن يؤدِّي رسالتَه ويُحصِّن ثغرَه ما استطاع.

فالخطيب على منبره يوصل العلم والخير إلى الناس ويحرص جاهدًا على توظيف الخطبة فيما ينفع المصلِّين جميعًا.

والإمام في مسجده يسعى جاهدًا في نفع جماعته؛ بتعليمهم، وبقراءة العلم عليهم، ومشاركتهم في علاج مشاكلهم.

وصاحب القلم يُسخِّر قلمَه في خدمة الإسلام والمسلمين؛ تارةً بالحديث عن وجوب إخلاص العبادة لله على هدي رسوله ج، وتارةً بالكتابة عن مُصاب الإسلام، وتارةً بإيجاد الحلول ونقل كلام العلماء، وتارةً بذِكر محاسن الإسلام وإظهار عزّته، وتارةً بكشف عوار المضلِّلين وإغوائهم... وهلمّ جرّا من تلك الجهود المتنوِّعة.

والشاعر يُسخِّر قريحتَه الشعرية في شحذ همّة المسلمين، ودفع عزائمهم في المضيّ قُدمًا إلى العمل للإسلام، وكذا في بيان مجد المسلمين والاعتزاز بالعقيدة، والحذر من المعاصي، وعليه أن يستشعر أنّ سلاح الشِّعر من أعظم الأسلحة فعاليةً في نفوس المسلمين فيزيد في عزيمتهم، وفي نفوس أعدائهم فيزيد في وهنهم وضعفهم.

وليتذكّر من جادت قريحتُه بنظم الشِّعر أنّ شُعراء الصحابة ﷺ ـ كحسّان وابن رواحة ـ كانوا يتقرّبون إلى الله تعالى بشِعرهم في نُصرة الإسلام والمسلمين، وكان لهم منزلةٌ عند النبيّ ﷺ ، فقد نُصِب لحسَّان كرسيٌّ في المسجد ودعا له النبيُّ ﷺ، وبيَّن أنّ أثر شِعره في نفوس الأعداء أشدّ من وقع النَّبل[١].

ومن الثغور أيضًا: توظيف المسلم وجاهتَه بين الناس لخدمة أهل الإسلام، وذلك

(١) كما في حديث عائشة عند مسلم (٢٦٦/٨) كتاب فضائل الصحابة، باب (٣٤) رقم (٦٣٤٥).

من خلال شفاعته للمحتاجين بأن يكون سببًا في تفريج كُرباتهم وقضاء حوائجهم، وكذا توظيف وجاهته في فتح أبواب الخير وغلق أبواب الشرّ، وذلك من خلال مخاطبة من له شيءٌ من الأمر والتأثير عليه... إلى غير ذلك من طرق الخير.

ومن تحصين الثغور أيضًا: أن يستشعر المصلح أنه مسؤول في أيّ موقع كان عمله الوظيفي، وذلك من خلال التخلّق بالأخلاق الفاضلة، والحرص على نفع مَن معه ومن حوله بما يستطيع من وسائل النفع المتنوِّعة، كتوزيع شريط أو كتاب أو رسالة، أو التحدّث معهم بما فيه نفع للإسلام والمسلمين، شريطة ألّا يؤثّر ذلك على أداء عمله الوظيفي.

وعودًا على بدء: عليك يا من تريد الإصلاح أن تبذل ما تستطيع من الجهد الخيري في أيّ موقع تكون فيه، وسترى من الله تعالى ما يسُرُّك بإذن الله تعالى.

***

[١٦]

الدعـــــاء

الدعاء نوع من أنواع العبادة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠

وفي قصة الخليل ؛: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ مريم: ٤٨

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: ((**الدعاء هو العبادة**))[(١)].

وقد كان ﷺ يُكثر دعاءَ ربِّه، وكُتب السنّة مليئة بهديه في الإخبات والتضرُّع واللجوء إلى الله لأ في السرَّاء والضرَّاء والرخاء والشدّة.

ومن هذا المنطلَق يقال: يغفل بعض المصلحين عن جانب الدعاء، وهذا من القصور والخلل في مسيرة الإصلاح؛ ذلك لأنّ أثر الدعاء من أعظم الآثار على نفس الداعي والمدعوِّين.

فيا من أردت الإصلاح... أكثِر من التضرُّع والإلحاح على الله تعالى، وعليك بدعاء الله وأنتَ موقنٌ بالإجابة، وإياك وتلبيس الشيطان عليك بتأخُّر إجابة دعائك، فكن من هذا على حذر، واعلم أنك بدعائك تتعبَّد الله تعالى وتقتفي منهج نبيِّك ﷺ.

***

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير: أحمد (٢٧١/٦) برقم (١٨٥٤٢)، وأبو داود (١٠٩/٢) كتاب الصلاة، باب (٣٥٨) رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٣٧٤/٥) كتاب التفسير، باب (٤٠) رقم (٣٢٦٠)، وابن ماجه (٢٦٢/٤) كتاب الدعاء، باب (١) رقم (٣٨٢٨).

[١٧]

مظهر القدوة في شخص الداعية وعبادته وجميع شأنه

من أعظم الأسباب في تأثير الداعي إلى الخير: ظهور آثار القدوة في شخصه وعباداته وجميع شأنه.

فإذا كان الداعية يتمثل في نفسه وخُلُقه وعباداته أثر النبيّ ج كان من ذلك مرضيًّا لله تعالى أولًا، ثم موافقًا لهدي النبيّ ﷺ ثانيًا، وثالثًا أدعى لتأثيره في نفوس السامعين... إلى غير ذلك من المصالح الشرعية.

فعليك يا من أردت الإصلاح أن تُخلص عملَك لله تعالى في إظهار القدوة الحسنة، وذلك من خلال المسارعة إلى الخيرات والحثّ عليها، ومجانبة ما يخرم مروءتك ويقدح فيها، ناهيك عن التلوُّث بالمعاصي.

واجعل نصب عينيك قولَ أمِّنا عائشة رضي الله عنها ((كان ﷺ خلُقه القرآن))[١]، يعني: يأتمر بأمره، وينتهي عند نهيه، ويتأدّب بآدابه.

جاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي : أنه كان كثير العبادة والتألُّه، رآه عليّ بن عبدالله بن عباس فأعجبه نسُكه وهديُه فاقتدى به في الخير[٢].

وذكر الحافظ ابن حجر في ((تقريب التهذيب)) في ترجمة الربيع بن خُثيم : أنّ عبدالله بن مسعود ﷺ قال له: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك. اهـ.

وذلك لسمته ووقاره واتّباعه للسنّة رحمه الله تعالى.

وقال عبدالله بن وهب: «ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلّمنا منه [٣].

وقد ذكر الإمام السمعاني: أنّ مجلس الإمام أحمد : كان يحضره خمسة آلاف، خمسمائة يكتبون والباقون يستمدُّون من سمته وخُلُقه وأدبه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨/٣) كتاب صلاة المسافرين، باب (١٨) رقم (١٧٣٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٥-١١).
(٣) «السير» (١١٣/٨، ٣١٦/١١).

وقال أبو بكر المطوِّعي: ((حضرتُ مجلس أبي عبدالله ـ يعني الإمام أحمد ـ وهو يقرئ أبناءه «المسند» اثنتي عشرة سنةً، ولم أكتب، إنما كنتُ أنظر إلى أدبه وخُلقه))[1].

شاهد المقال: أنّ القدوة قد يؤثّر بفعله قبل قوله، بل وأكثر من قوله.

وإنّ مما يُعين على ظهور القدوة في شخص الداعية: أن يحرص على التمثُّل بخصال الخير ما ينفع الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ومن ذلك: سلامة القلب، وقضاء حوائج الناس، والحذر من إخلاف الوعد، والحِلم، ولين الجانب، والحذَر من خوارم المروءة، والتواضع، والانبساط للناس، ورحابة الصدر، ونشر العلم والفائدة بين الناس في كلّ وقت يراه مناسبًا.

***

(١) «السير» (١١/٣١٦).

[١٨]
عدم احتقار الجهد ولو كان يسيرًا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٧ .

وعن أبي ذرّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا تحقرنّ من المعروف شيئًا**))[١].

وعن عديّ بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**اتّقوا النار ولو بشِقّ تمرة**))[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يا نساء المسلمات، لا تحقرنّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة**))[٣].

فمن دلالة هذه النصوص وما شاكلها يتبيَّن لنا أنّ الخير ولو كان قليلًا فإنه يؤتي ثماره، وهو بلا ريب خيرٌ من العدَم.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فعلى مُريد الإصلاح ألّا يزهد في أيّ عمل من أعمال الخير ولو كان يسيرًا في نظره.

فكم من كلمة طيّبة نفعت أناسًا.. بل غيَّرت مجرى حياتهم وأبدلتهم ـ بعد فضل الله تعالى ـ من بعد ضلالهم هدًى وتوفيقًا.

وكم وجه طلْقٍ أثّر في جليسه فتأثّرت أخلاقُه وتبدّلت من سيّئها إلى حسنها.

فيا من أراد الإصلاح... أخلصْ عملَك لله، ولا تحرمنّ نفسَك وغيرَك من خير أنت قادرٌ على قوله أو فعله، ولو قلّله الشيطان في عينيك وصغّره في نفسك، فأوَّلُ الغيث قطرة ثم ينهمر.

لا تحقرنّ صغيرةً   إنّ الجبال من الحصى

قال الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: ((رُبَّ عمل صغير تُكَبِّرُه النية، ورُبَّ عمل كثير تُصغِّرُه النية)) [٤].

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى: ((... فرحم الله من أعان على الإسلام

---

(١) أخرجه مسلم (٨/٣٩٣) كتاب البر، باب (٤٣) رقم (٦٦٣٣).
(٢) متفق عليه: البخاري (١٠/٥٥١) كتاب الأدب، باب (٣٤) رقم (٦٠٢٣)، ومسلم (٤/١٠٣) كتاب الزكاة، باب (٢٠) رقم (٢٣٤٦).
(٣) متفق عليه: البخاري (١٠/٥٤٧) كتاب الأدب، باب (٣٠) رقم (٦٠١٧)، ومسلم (٤/١٢١) كتاب الزكاة، باب (١٩) رقم (٢٣٧٦).
(٤) «السير» (٨/٤٠٠).

ولو بشطر كلمة [١].

وأنقل إليك ـ يا داعية الخير ـ أمثلةً توضح لي ولك كيف أنّ تقديم الخير ولو كان يسيرًا تكون عاقبة أمره فلاحًا ونفعًا عظيمًا.

١- كتاب (صحيح البخاري) أصحّ كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي إذا خَرَّجَ صاحبُه لأحد من الرُّواة رواية فيه فقد جاوز القنطرة، وإذا قيل (رواه البخاري) يقع في النفس هيبةٌ له، ما سببُ تأليفه؟ إنها كلمة واحدة في مجلس واحد وقعت في أذن الإمام البخاري، فيسَّر الله لأ له تأليف هذا الكتاب الذي رفع منزلة البخاري إلى مرتبة عالية، فلقد ذُكِر لتأليفه الصحيح ثلاثة أسباب، أشهرها: أنّه كان في حلقة إسحاق بن راهويه فقال إسحاق: ((لو أنّ أحدَكم يجمع كتابًا فيما صحَّ من سُنّة الرسول ﷺ))[٢].

جملة واحدة... قالها إسحاق فوقع ذلك في نفس البخاري فصنّف هذا الكتاب العظيم الذي خلّد التاريخ اسمه.

٢- الإمام الذهبي، هذا الإمام الفحل الذي يقول عنه السُّبكي: ((أما أستاذنا أبو عبدالله فبحرٌ لا نظير له، وكنزٌ، إمام الوجود حفظًا، وذهبُ العصر معنًى ولفظًا، وشيخ الجرح والتعديل، رجُل الرِّجال في كلّ سبيل، كأنما جُمعت الأمة في صعيد فنظرها ثم أخذ يُخبر عنها إخبار من حضرها))[٣].

سبب طلبه لعلم الحديث كلمة واحدة، يقول هو في نفسه عن الإمام البرزالي: إنّه لّما رأى خطّه قال له: «إنّ خطّك هذا يُشبه خطّ المحدِّثين . قال الذهبي: ((فحبّب الله إليّ علم الحديث))[٤].

فانظر ماذا فعلتْ هذه الجملة في الإمام الذهبي؟ فقد صار من أئمة الحديث وحُفاظه ونُقّاده.

٣- ما ذكره محمد بن نصر في ((مختصر قيام الليل)) قال: ((وكان صِلَةُ بن أَشْيَم

(١) «واجب المسلمين» (ص١٦).
(٢) «هدي الساري» (ص٩).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١/١٦٩) من تقديم الكتاب ودراسته باختصار.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/٣٦) من تقديم الكتاب ودراسته.

يخرج إلى الجَبَّان[١] يتعبَّد، فكان يمُرُّ على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفرًا فجاروا النهارَ عن الطريق وناموا الليلَ، متى يقطعون سفرهم؟ فكان كذلك يمُرُّ بهم فيقول لهم ذلك، فمرَّ بهم ذات يوم فقال لهم هذه المقالة فانتبه شابٌّ منهم فقال: يا قوم، إنه والله ما يعني غيرَنا، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام، ثم اتَّبع صلةَ فلم يزل يختلف معه إلى الجبَّان فيتعبّد معه حتى مات))[٢].

إذن؛ لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، فربما تقرأ كتابًا صغيرًا أو تحضر مجلس علم لطالب علم صغير، فتسمع كلمةً تُحدِث في نفسك أمرًا لا تعلم مداه فتُحصِّل خيرًا كثيرًا من العلم.

***

(١) الجبان والجبانة بالتشديد: الصحراء. «مختار الصحاح».
(٢) «مختصر قيام الليل» (ص٣٧).

[١٩]
قراءة سيَر المصلحين والاحتذاء بهم

إنّ البحث في سيَر المصلحين وكيفية تعاملهم مع مجتمعاتهم فيه فوائد كثيرة ومنافع جمَّة؛ لأنّ دعوة الإصلاح واحدة، ومقصد المصلحين واحد، وهو إنقاذ مجتمعاتهم مما علق بها من الضلال والجهل والفساد والإفساد.

وإذا أمعن الداعية القراءة في تراجم أولئك العلماء الصادقين الناصحين قويت همّتُه وزادت عزيمتُه، واستفاد من تجاربهم وجُهودهم، فتلافى أخطاءً قد وقع ـ أو كاد يقع ـ فيها.

قال العلّامة الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: ((... الحديث عن المصلحين والدعاة والمجدِّدين والتذكير بأحوالهم وخصالهم الحميدة وأعمالهم المجيدة وشرح سيرتهم التي دلّت على إخلاصهم وعلى صدقهم في دعوتهم وإصلاحهم... الحديث عن هؤلاء المصلحين المشار إليهم وعن أخلاقهم وأعمالهم وسيرتهم مما تشتاق إليه النفوس، وترتاح له القلوب، ويودُّ سماعَه كلُّ غَيور على الدِّين وكلّ راغب في الإصلاح والدعوة إلى سبيل الحقّ...)). انتهى الشاهد من كلامه رحمه الله تعالى[(١)].

***

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» جمع د. محمد الشويعر (١/٣٥٨).

[٢٠]

توطين النفس على الصبر على البلاء

المسلم في جميع أموره على خير إن صلحت نيَّتُه وبذل وُسعَه في طلب الخير ونشره... حتى ولو أصابه مكروهٌ في ذلك فهو على خير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ .

وفي الحديث: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمرَه كلّه له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلّا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابتهُ ضرَّاء صبر فكان خيرًا له**)).

إذا عُلِم هذا؛ فاعلم ـ يا مريد الإصلاح ـ أنّ البلاء ليس غريبًا أن ينزل بك، فقد نزل بمن هو خيرٌ منك؛ بالأنبياء عامّة عليهم السلام، وبنبيِّنا ﷺ خاصةً.

بلاءٌ فعليّ وبلاء قوليّ؛ ضربوه ج وكسروا رباعيته، وشجُّوا رأسه، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون... ومع هذا كلِّه ما زاده ذلك إلّا إيمانًا وتسليمًا.

فاحتسب ما أصابك عند الله، وتذكّر ما أصاب نبيَّك ﷺ والأنبياء عليهم السلام قبله، ثم اعلم أنّ العاقبةَ للمتَّقين، وأنّ النصر مع الصبر، وأنّ مع العُسر يُسرًا.

قال ﷺ: ((**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْهُ تُجاهَك، وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف**)).

زاد الإمام أحمد في رواية: ((**واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العُسر يسرًا**))[١].

***

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٤)، والترمذي (٢٥٢١).

[٢١]
نشر الخير ورد الشر من خلال وسائل الإعلام

قال العلّامة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى:

((وأمّا عن مجابهة الغزو المتمثِّل في الإذاعات والكتُب والصحُف والمجلّات والأقلام التي ابتُليت بها المجتمعات الإسلامية في هذا العصر وأخذت تشغَل أكثر أوقات المرء المسلم والمرأة المسلمة ـ رغم ما تشتمل عليه في أكثر الأحيان من السمّ الزُّعاف والدِّعاية المضلِّلة ـ فهي من أهمِّ المهمَّات لحماية الإسلام والثقافة الإسلامية من مكائده وشرِّه، مع التأكيد على دُعاة الإسلام وحُماته للتفرُّغ لكتابة البحوث والنشرات والمقالات النافعة، والدعوة إلى الإسلام، والردّ على أصناف الغزو الثقافي، وكشف عواره وتبيين زيفه، حيث إنّ الأعداء قد جنَّدوا كافة إمكاناتهم وقُدراتهم وأوجدوا المنظّمات المختلفة والوسائل المتنوّعة للدسِّ على المسلمين والتلبيس عليهم.

فلا بُدّ من تفنيد هذه الشبهات وكشفها، وعرض الإسلام عقيدةً وتشريعًا وأحكامًا وأخلاقًا عرضًا شيِّقًا صافيًا جذّابًا، بالأساليب الطيِّبة العصرية المناسبة، وعن طريق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، من طريق جميع وسائل الإعلام، حسب الطاقة والإمكان؛ لأنّ دين الإسلام هو الدِّين الكامل الجامع لكلّ خير، الكفيل بسعادة البشَر وتحقيق الرُّقيّ الصالح والتقدُّم السليم، والأمن والطمأنينة والحياة الكريمة، والفوز في الدنيا والآخرة))[(١)].

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» جمع د. محمد الشويعر (١/٣٩٢).

[٢٢]
الاهتمام بالكيف لا بالكم

هاهنا مقدمتان:

الأولى: أنّ العبرة بصلاح العمل ولو كان يسيرًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هود: ٧ ، الملك: ٢ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر: ١٠ .

ففي الآيتين الكريمتين بيان لأهمية كيفية العمل ونوعه، فجاء وصف العمل بالصلاح، والكلم بالطيّب، وفي الآية الأولى بيَّن أنّ العبرة بحسن العمل.

والعمل الحسن الصالح الطيّب هو: الذي يكون صاحبُه مخلصًا لله تعالى فيه، متّبعًا للنبيِّ ج ومقتفيًا أثرَه.

والنصوص الشرعية المؤكّدة لهذا يطول حصرُها، فضلًا عن سردها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ آل عمران: ٣١ وقوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر: ٧ . ومن السُّنّة قوله ﷺ: ((**إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتاب الله وسُنّتي، ولن يتفرَّقا حتى يرِدَا عليَّ الحوض**))[١].

أما المقدمة الثانية فهي: أنّ الكثرة ليست محمودةً على إطلاقها. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الأنعام: ١١٦. وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف: ١٠٣ وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص: ٢٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٤٩

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الفرقان: ٤٤

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٢٨٤) كتاب العلم، باب (١٤١) رقم (٣٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن السنّة قوله ﷺ : ((**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كلّ أفق كما تداعى الأكَلَة إلى قصعتها** . قيل: يا رسول الله، فمن قلّة يومئذ؟ قال: «**لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يُجعل الوهن في قلوبكم ويُنزَع الرُّعب من قلوب عدوِّكم، لحبِّكم الدنيا وكراهيتكم الموت**))[1].

وبعد هاتين المقدّمتين تكون نتيجة ذلك:

أنّ على مريد الإصلاح مراعاة حُسن العمل وصلاحه ولو كان يسيرًا، وعدم تقديم كثرة العمل المجرَّد من الدليل، والاغترار به ولو كان الأثر ـ في نظره وقناعته ـ مفيدًا سليمًا.

فعليك ـ يا من أردت الإصلاح ـ أن تجعل نصب عينيك: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يوسف: ١٠٨

قال بعض أهل العلم: «وإنّ مما يجب أن يُعرَف ويُحذَر منه: ما سلكه ويسلكه بعض من أراد الإصلاح مِن كونهم يهوِّنون أو يغضُّون الطرف عن كثير من المخالفات الشرعية، بدعوى عدم تنفير المدعوِّين حتى يكثر الجمع! حتى وصل الحال ببعض مريدي الإصلاح إلى تهوين ـ بل التقليل من شأن ـ الخلاف في مسائل عقدية وترك ما عليه السلف الصالح بدعوى رأب الصدع ولَـمِّ الشمل زعموا!

وهذا التصرُّف المشين نذير شرّ وفتنة.

وما دعا أولئك إلى هذا الأمر إلا النظر من منظار تكثير الجمع دون تمحيص وبيان، وهذا خلل عظيم في مسيرة الإصلاح.

وهؤلاء إنما أصيبوا بالخرس عن الدعوة إلى العقيدة بدعوى أنّ العقيدة والدعوة إليها مما يفرِّق الأمة ويمزِّق كيانها؛ لأنهم يريدون أن يجمعوا تحت لوائهم ما هبَّ ودبَّ، لا فرق في ذلك عندهم بين ملتزم بالعقيدة الصحيحة وغيره، إذ إنّ الهدف الذي يقصدونه هو مجرّد التجميع دون تمييز بين الصالح وغيره، فهذا منهج بلا شكّ سينتهي إلى الفشل بأصحابه، نظرًا لكونه قد بُني على أسس غير سليمة، وذلك أنّ أصحاب هذا المسلك أُتوا من عدم الفهم الصحيح، حيث لم يفرقوا في الدعوة بين الأصول

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٤٥٧/٧) رقم (٢٢٧٦٠)، وأبو داود (٣١٥/٤) كتاب الملاحم، باب (٥) رقم (٤٢٩٧) من حديث ثوبان ﷺ.

والفروع» اهـ.

((وإذا أردنا أن يتحقّق للمسلمين ما يصبون إليه وما يتطلّعون إليه من العودة بالمسلمين إلى الإسلام الصحيح، فعلينا أن نسلك بهم طريق التعليم والتربية، وتفقيه الشباب المسلم الشوائب التي علقت بالدِّين ودعوته، وتلك الرواسب التي أكل عليها الدهر وشرب، والتي انحرفت بالمسلمين (أي أكثرهم) عن الجادَّة الصحيحة التي رسمها لهم الله لأ في كتابه المبين وبيَّنها رسول الهُدى ﷺ في سنّته المطهّرة، ولنا أسوة حسنة في أولئك الدعاة المصلحين الذين أسَّسوا دعوتهم على عقيدة الإسلام، وبدؤوا بتطهيرها من شوائب الشرك والخرافات...))[1].

(١) «منهج السلف وأثره في وحدة المسلمين» للدكتور صالح السحيمي، مجلة البحوث الإسلامية (ص١١، ١٨٨).

[٢٣]
معرفة حال المدعوين

لما بعث النبيّ ﷺ معاذًا ا إلى اليمن قال له: ((**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله**...))[١].

والشاهد من الحديث: أنه عرّفه بحال المدعوِّين ثم بيَّن له كيف يبدأ دعوته لهم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ((قوله: (**ستأتي قومًا أهل كتاب**) هي كالتوطئة للوصيّة؛ لتستجمع همّته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهَّال من عبَدَة الأوثان))[٢].

ومن الأدلة أيضًا على أنّ معرفة حال المدعوِّين تعين على إيصال دعوة الخير، بل ذلك من السياسة الشرعية التي يستطيع بها الداعي توظيف الوسائل المرغِّبة للطرف الآخر عند العلم بحاله وعاداته: ما جاء في أخبار السيرة: أنّ النبيَّ ﷺ في عام الحديبية وبينما كانت رسل المشركين تأتيه للتفاوض معه، كان من ضمن أولئك الرسل رجل من بني كنانة فقال: دعوني آتِه، فلما أشرف على النبيِّ ﷺ وأصحابه ي قال رسول الله ﷺ: ((**هذا فلان، وهو من قوم يُعظِّمون البُدْن، فابعثوها له**)). فبعثوها له، واستقبله القوم يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا على البيت! فلما رجع إلى أصحابه قال: ((**رأيت البُدن قد قُلِّدَت وأُشعِرت، فما أرى أن يُصدُّوا عن البيت**...))[٣].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس: أخرجه البخاري (٣/٤٤٩) كتاب الزكاة، باب (٦٣) رقم (١٤٩٦)، ومسلم (١/١٤٦) كتاب الإيمان، باب (٧) رقم (١٢١).

(٢) «فتح الباري» (٣/٣١٩).

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي، المغازي (ص٣٧٠).

[٢٤]

إنزال المدعوين منازلهم

ورد في الحديث عن عائشةرضب الله عنها قالت: ((أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنزل الناس منازلهم))[(١)].

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: ((مبحث في تعظيم من كان رأسًا في طائفته وكبيرًا عند أهل نِحلته))، ثم ساق الحديث السابق وساق إسناده إلى قوله ﷺ: ((**إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه**)).

وذكر أيضًا: أنّ عمر بن الخطاب ﵁ كتاب إلى أبي موسى الأشعري ﵁: ((إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس، فأكرم وجوه الناس))[(٢)].

وفي إنزال الناس منازلهم: كسبٌ لقلوبهم، واختصار لجهود كثيرة، وقبل هذا كلّه: اقتداء بهدي النبيّ ﷺ، فقد كان ج ينزل الناس منازلهم، وهذا من السياسة الشرعية التي تعود على الداعي والمدعوّ بالمصلحة.

وشواهد ذلك كثيرة، ومن ذلك: كتاب النبيّ ﷺ إلى هرقل، وفيه: ((**من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم...**)).

ذكر الحافظ ابن حجر عند قوله: (عظيم الرُّوم) أنّ النبيَّ ﷺ لم يُخْلِهِ من إكرام؛ لمصلحة التألّف[(٣)].

***

---

(١) ذكره مسلم في مقدمة «صحيحه» بلا إسناد تعليقًا (١/١٦).
وأخرجه بلفظ: «أنزلوا...» أبو داود (٥/١١٢) كتاب الأدب، باب (٢٣) رقم (٤٨٤٢).
وقد ورد من غير حديث عائشة، وانظر تفصيل ذلك في كتاب «المقاصد الحسنة» للسخاوي حديث رقم (١٧٩). وقد قال في آخر كلامه: «وبالجملة فحديث عائشة حسن».

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (ص١٧٣).

(٣) «فتح الباري» (١/٥٠).

[٢٥]
متابعة الجهود

يُوفَّق بعض دُعاة الإصلاح إلى خير كثير من خلال جهودهم الطيّبة في نشر العلم والخير.

إلّا أنّ بعض الجهود تذهب ثمرتها بعد وقت يسير من بذلها، وهذا النوع يحتاج إلى تعاهُد ورعاية، ومثاله:

كان يؤثّر داعية إصلاح على رجل تلوّث بالمعاصي بنصيحة مؤثرة ـ مثلًا ـ فيبدو التأثر وآثار التوبة عليه، فمثل هذا يحرص عليه بالزيارة أو الاتصال الهاتفي، أو أن يدلّ عليه بعض طلبة العلم والخير، وذلك حفاظًا عليه من عدم الرجوع إلى سيرته الأولى.

وقس على هذا المثال أمثلة كثيرة مما كان على شاكلته.

شاهد المقال: أن يتابع طالب العلم جهودَه، وخاصةً فيما يخشى ضياعه؛ لأنّ متابعة الجهود من صميم الدعوة، إضافةً إلى أنها تحفظ ـ بإذن الله ـ ثمرات كثيرة من الضياع.

[٢٦]

الحرص على الصغار

لقد عُني الإسلام عنايةً فائقةً بالاهتمام بأمر الصغار وطُرُق إصلاحهم، ذلك لأنّ صلاح الصغار وتنشئتهم نشأةً صالحةً تزيد قوة البناء، وتجعل الأجيال القادمة محفوظةً ـ بعون الله تعالى وفضله ـ من مضلّات الفتن، وهذا مما يعود على الصِّغار بالنفع، وعلى الكبار بالأجر.

ولقد جاءت نصوص كثيرةٌ في العناية بأمر الصِّغار وتعاهُد شأنهم، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ التحريم: ٦ قال عليّ رضي الله عنه: ((علِّموا أهليكم الخير))[١].

وكان ﷺ يهتمُّ بتعليم الصغار وتربيتهم، وشواهد ذلك في السنّة كثيرة، فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن عليّ رضي الله عنه تمرةً من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبيُّ ﷺ: «**كخ كخ**» ليطرحها. ثم قال: ((**أمَا شعرتَ أنّا لا نأكل الصدقة؟**))[٢].

وذكر الحافظ أثناء عَدِّه لفوائد الحديث: تأديب الصِّغار بما ينفعُهم ومنعهم مما يضرُّهم ومن تناول المحرَّمات وإن كانوا غيرَ مكلّفين؛ ليتدرَّبوا بذلك.

وعن عمرو بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: ((كنتُ غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: ((**يا غلام، سَمِّ اللهَ وكُل بيمينك وكُل ممّا يليك**)) فما زالت تلك طعمتي بعدُ)). أخرجه البخاري[٣].

ومن جميل فوائد هذا الحديث: تأثر الصغير وتعليمه.

وأخرج البخاري[٤] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ((صلّيتُ مع النبيِّ ﷺ ذات ليلة فقمتُ عن يساره، فأخذ رسول الله ﷺ برأسي من ورائي فجعلني عن يمينه)).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ((دخل النبيُّ ﷺ الخلاء فوضعتُ له وَضوءًا، فقال:

---

(١) «الترغيب والترهيب» (٧٦/١).
(٢) «فتح الباري» (٤١٤/٣).
(٣) «فتح الباري» (٤٣١/٩).
(٤) «فتح الباري» (٢٤٧/٢-٢٤٨).

((من وضع هذا؟))، فَأُخبِر فقال: ((**اللهمَّ فقِّهه في الدِّين**)).

وثبت في السنّة أنه ﷺ قال: ((**علِّموا الصبيَّ الصلاة ابنَ سبع سنين، واضربوه عليها ابنَ عشر**)) . أخرجه البيهقي وبوَّب عليه: باب ما على الآباء والأمّهات من تعليم الصبيان أمر الطهارة والصلاة[1]. وقال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: ((وكذلك ينبغي أن يُدَرَّبوا ويُعلَّموا الشرائع من الصلاة والصوم إذا أطاقوا ذلك، ويُجنَّبوا الحرام كلّه)) [2]. **ومن أسباب نفع الصِّغار:**

١- غرس حبّ الله تعالى ورسوله ﷺ والصحابة ي في نفوسهم.

٢- تربيتهم على منهج العلم الشرعيّ، وذلك بتعليمهم صفة الوضوء النبويّ، والصلاة النبوية، والآداب النبوية، كآداب الأكل والشرب والمجالس والمساجد...

٣- ربطهم بين حين وآخر بزيارة العلماء وطلبة العلم؛ لينشؤوا على الصلة بأهل العلم والتخلّق بأخلاقهم.

٤- تربيتهم على الأمور الواجبة وتعظيمها في نفوسهم، كأداء الصلاة مع الجماعة إذا وجبت عليهم، وبرّ الوالدين، والصدق في القول، وتحذيرهم من الكذب والخديعة.

٥- استثمار أوقاتهم فيما ينفعهم، كمدارس تحفيظ القرآن الكريم والمراكز الصيفية.

٦- إشغال أوقاتهم في بيوتهم بما ينفعهم من المقروء أو المسموع.

٧- وهو من أهمّ أسباب نفعهم بإذن الله تعالى: الحرص على إظهار القدوة الصالحة لهم في الأقوال والأفعال والأحوال المختلفة، وذلك أنّ السلوك المستقيم والسمت الطيِّب قد يكون أبلغ أثرًا من مجرَّد الكلام والتوجيهات النظرية.

وتقدّم في مبحث «مظهر القدوة في شخص الداعية..» قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه للرَّبيع بن خُثَيم رحمه الله تعالى: ((لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك)). وذلك لسمته ووقاره واتِّباعه السنّة رحمه الله تعالى.

وقول عبدالله بن وهب: ((ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلّمنا منه)).

***

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٣/٨٣-٨٤).
(٢) «المحلّى» (٧/٢٧٦).

[٢٧]

تعظيم النصوص الشرعية

لما كان تعظيم الله تعالى مستلزمًا لتعظيم أحكامه ومراعاة حدوده؛ كان على المسلمين عامّة ـ وعلى الدعاة بخاصة ـ أن يُعظّموا النصَّ الشرعيّ ويُرسِّخوا ذلك في قلوبهم وقلوب الناس.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى: ((أول مراتب تعظيم الحقّ سبحانه وتعالى: تعظيم أمره ونهيه؛ وذلك لأنّ المؤمن يعرف ربّه سبحانه وتعالى برسالته التي أرسل بها رسوله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله جل وعلا واتِّباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار والمشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحّة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر...)). انتهى المراد من كلامه رحمه الله تعالى[1].

ولما كان تعظيم الربّ سبحانه وتعالى لا يتمّ إلا بتعظيم أمره ونهيه؛ كان لزامًا على كلّ مسلم أن يسارع إلى تحقيق ذلك وأطر النفس عليه، حتى تستقيم عليه وتدوم عليه.

ومن علامات تعظيم النصوص:

١- عدم الاختيار أو المشورة في حكم الله تعالى، بل التسليم الكامل المطلق دون تردُّد أو شكّ أو ريب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦

٢- عدم التنطّع في البحث عن الحكمة أو العلّة والتعمُّق في ذلك، فتلك الصفة تنافي كمال التسليم والانقياد، بل قد يستمرئ صاحبُها ذلك فتجرُّه إلى الاعتراض على بعض الأحكام الشرعية، وهذا مزلّة قدَم، فليحذر المسلم من ذلك، ولا مانع من السؤال والاستئناس بطلب الحكمة فيما يمكن أن تظهر حكمتُه، وإلّا فالواجب الإمساك والتأدُّب مع مقام التشريع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٣

---

(١) «الوابل الصيب».

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى: ((... بل يُسَلِّم لأمر الله تعالى وحكمه، ممتثلًا ما أُمِرَ به، سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد بالبذل والتسليم لأمر الله..))[1].

٣- عدم وجود الحَرَج في النفس عند سماع النصِّ الشرعيّ، ويتأكد عند تطبيقه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

٤- الغضب لله تعالى إذا انتُهكت محارمُه، ومحاولة التغيير ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. قالت عائشة ! ؟ !!! !!!؟!!: ((ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلّا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها))[2].

٥- أن يكون تقبُّل العبد للنصوص تعبُّدًا لله تعالى واستسلامًا له.

٦- أن يُمسِك عمّا لا علم له به، وأن يحذر من الخوض في ذلك.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٣٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦/٦٩٢) كتاب المناقب، باب (٢٣) رقم (٣٥٦٠) واللفظ له، ومسلم (٨/٨٢) كتاب الفضائل، باب (٢٠) رقم (٥٩٩٩).

[٢٨]
محاسبة النفس وطلب النصيحة

من أنفع الأمور لمعرفة مكامن النقص والخطأ ومن ثمَّ معالجتها ـ بعد توفيق الله تعالى ـ: محاسبة العبد نفسَه، وعدم التماس الأعذار الواهية في سبيل تبرير أخطائه؛ لأنّ التماس الأعذار الواهية يزيد صاحبَه رُسوخًا في أخطائه، بل قد تنقلب تلك الأخطاء صوابًا في نظره، وهنا تعظم المصيبة!

وعلى هذا؛ فينبغي أن يجعل مريد الإصلاح محاسبةَ نفسه بصدق نصبَ عينيه دائمًا، وسيرى من التوفيق والخير ما يَسُرُّه بإذن الله تعالى، وكما قيل: ((لا يكون الرجُل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدّ محاسبةً من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسُه ومطعمه ومشربه))[١].

وإنّ مما يُعين على محاسبة النفس بصدق: أن يختار وقتًا مناسبًا حتى يكون خاليًا من الطوارق والشواغل، فإنه كلما كان العبدُ بعيدًا عمَّا يشغل فكره كان أكثر استجماعًا لمشاعره وأحاسيسه، وكانت نفسُه أكثرَ تقبُّلًا لمعرفة مواضع النقص أو الخلل أيًّا كان نوعه.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى عند كلامه عن الأسباب المنجية من عذاب القبر: ((أن يجلس الرجُل عندما يريد النوم لله ساعةً يحاسبُ نفسَه فيها على ما خسره وربحه من يومه، ثمّ يجدِّد له توبةً نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة))[٢].

ثم قال رحمه الله تعالى: ((ويفعل هذا كلّ ليلة)).

وقال بعضهم: ((الرجل ينبئ عمّا في نفسه في ثلاثة مواضع... وعدّ منها: عند اضطجاعه على فراشه))[٣].

ولقد كان السلف رحمهم الله تعالى من أشدّ الناس محاسبةً لأنفسهم وتفقُّدها صباح مساء؛ إدراكًا منهم لأهمية هذا الجانب في استقامة أمرهم وصلاح شأنهم، وأسوق إليك هذا الأثر لتعرف مدى حرصهم على تفقُّد أنفسهم:

قال يعلى بن عبيد: ((دخلنا على ابن سوقة فقال: يا ابن أخي، أُحدِّثكم بحديث لعله ينفعكم، فقد نفعني، قال لنا عطاء بن أبي رباح: إنّ مَنْ قبلكم كانوا يعدُّون

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٧٤).
(٢) «الروح» (١/٣٤٥).
(٣) «الفرج بعد الشدة» (١/٣٠٨).

فضول الكلام: ما عدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكَر أو أن تنطق في معيشتك التي لا بُدّ لك منها، أتُنكِرون أنّ عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد؟! أما يستحي أحدُكم لو نشرت صحيفتُه التي أملى صدرَ نهاره وليس فيها شيءٌ من أمر آخرته؟!))[١].

ومما ينبغي أن يُفطَن له في هذا المقام: أمرٌ لبَّس به الشيطان على كثيرين، وجعلهم من أبعد الناس عن محاسبة أنفسهم، وهو: مدح الناس للشخص وثناؤهم عليه حتى يرى نفسَه كاملًا أو مقاربًا للكمال! فلا يقبل في نصحه صرْفًا ولا عَدْلًا! وهذا بابٌ عظيم إلى الخذلان والخسران.

فليفطن الداعية إلى هذا، وليكن على حذر من هذا المزلق، كما قيل:

((العاقل من عرفَ نفسه ولا يغُرُّه مدحُ مَنْ لا يَخْبُرُها))[٢].

فعليه أن يحمد الله تعالى كلما رأى توفيقًا وسدادًا في أموره، وليعلم أنّ مدح الناس له وثناءهم عليه لا يخلو من أحد أمرين؛ إمّا أن يكون دافعًا أو مانعًا:

يكون دافعًا إلى الخير: إذا صدق في شُكره لله تعالى ما أنعم عليه وزاد مضاعفة الجهد ابتغاء مرضاة الله ثم نفع عباده، وليعلم أنّ مدح الناس له والحال هذه من عاجل بُشرى المؤمن، فليطمئنّ قلبًا ولينشرح صدرًا.

ويكون مانعًا من الخير: إذا جعل مدحَ الناس مطيّةً له إلى التصدُّر في المجالس، ومن ثمَّ الترفُّع على الآخَرين وتصعير الخدّ لهم، بل هذا الشعور منه من أعظم الحواجز عن قبول النصح، فلا غرابة إذا أخذته العزّة بالإثم عند مناصحته؛ لأنه يرى نفسَه في منزلةٍ تجاوزت مرحلةَ النصح والنقد. فليحذر العبد من هذا المزلق؛ فإنّ مرتعه وخيم!

وقد رُوي في هذا المقام أثرٌ عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ عالج فيه تلك الآفة (الاغترار بمدح الناس) علاجًا موفّقًا يدلّ على إخلاصه وورعه ﷺ وأرضاه.

جاء في الخبر: أنّ قومًا مدحوا أبا بكر الصدِّيق ﷺ، فقال: ((اللهمَّ أنت أعلمُ بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلني اللهمَّ خيرًا مما يحسبون، ولا تُؤاخذني بما يقولون، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون))[٣].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٨٦).
(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/١٤٨).
(١) وروي بمعناه عن ابن عمر ﷺ . انظر كتاب «الزهد» لابن المبارك رواية نعيم بن حماد (ص١٤).

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى تلك الكلمات النفيسة، وكيف أنّ الممدوح جعل فضل الله وستره نصبَ عينيه؛ خشية أن يظفر الشيطان بنصيبٍ منه؟

وعودًا على بدء يقال هاهنا:

إنّ من الأمور التي تُعين العبدَ على معرفة تقصيره وخطئه: طلب النصح من الآخَرين، وخاصةً ممّن يعرفونه معرفةً خاصةً وهم على جانب من العلم والتقى، فإنّ نُصحَ هؤلاء أنفع النصح له بإذن الله تعالى؛ لعلمهم ومعرفتهم به.

وأداء النصح لمن طُلب منه مطلبٌ شرعيّ، كما قال رسول الله ﷺ: ((**حقّ المسلم على المسلم ستٌّ**... وذكر منها: **وإذا استنصحك فانصح له**))[1].

ومن الأمور التي تُعين على محاسبة النفس وتفقّدها: أخذ العبرة والاستفادة من أخطاء الآخَرين، وذلك بمعرفة الأسباب الجالبة للخطأ الذي وقعوا فيه، فإن كان قريبًا منه اتّقاه، وإن كان بعيدًا أخذ بجانب الحذر حتى لا يقع كما وقعوا.

فيستفاد مما سبق: أنّ مما يُعين على صدق المحاسبة عدّة أمور:

أولًا: صدق دُعاء الله تعالى.

ثانيًا: الحرص على أن يكون خاليًا من الشواغل والطوارق عند محاسبته لنفسه.

ثالثًا: قبول النصح إذا كان الناصح مُحقًّا.

رابعًا: طلب النصح من أهل العلم والصلاح.

وهناك أسباب أخرى، ولعل ما سبق يكفي في إيضاح المقصود.

وللفائدة يوجد كتابٌ بعنوان «محاسبة النفس» للحافظ ابن أبي الدنيا، ذكر فيه آثارًا نافعةً في هذا الباب[2].

ختامًا؛ اللهَ أسأل أن يُبارِك في جهود المصلحين، وأن يرزقهم العلم النافع والعمل الصالح.

اللهمَّ اجعلنا مبارَكين أينما كنّا.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

---

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب (٣) الحديث (٢١٦٢).

(١) «معالم في طريق طلب العلم» (ص١١٧-١٢٠).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

